

## قراءات مقارنة في ثقافة اللغة

خصوصية نقل مفاهيم ظاهرة العنصرية من اللغة الهدف (الغربية) إلى اللغة العربية

### مقدمة

تنطوي ظاهرة الأنانية التلقائية على وصم كل ما هو خارج عن وسطنا وعن جماعتنا وعن عالمنا بخصائص سلبية. وتوجد هذه الظاهرة لدى الجميع ولكنها تتفاوت بكثافتها من وسط لآخر، وتعرف كل جماعة إنسانية نفسها وفي معظم الحالات بالتعارض أو التنافر مع الجماعات الأخرى. فكل هوية إنسانية تحمل في طياتها نزعة انطوائية الشعور بالترفع عن الآخرين بتفاوت وفقاً للسياقات الاجتماعية، وفي أغلب الأحيان وفقاً للوضع المادي للشعوب فعندما يكون في حالته الساكنة لا يرتدي التمييز العنصري طابعاً عدوانياً أو عنيفاً ولا يلحق الأضرار المباشرة في الجماعات الإنسانية الأخرى، وهذا النوع من الشعور بالتعالي أو بالافتخار بالذات نجده في المجتمعات الوارثة لحضارة ذات طموحات كونية، وتشهد تطوراً مادياً محدوداً كالمجتمعات العربية الإسلامية. ولكن هناك نوعاً آخر من الشعور بالتعالي أكثر جذرية وحدة وأقل تحملاً للآخرين، يفرض أساساً عدم التساوي الطبيعي بين الشعوب وهو الذي ينم عن عقدة التعالي المتعجرفة مما يكون العنصرية ذات الأوجه العنيفة ضد هؤلاء الذين ينتمون لأعراق أخرى تعتبر أقل مكانة. هذا النوع من نزعة التعالي يسود في الغرب حيث يعتبر دعاة هذا النوع من التعالي أنفسهم سادة العالم ويعتبرون الشعوب غير الغربية ذات منزلة دنيا وينظرون إليها باحتقار. إن الأشكال الحقيقية لهذه العنصرية تمثلت جلياً في الجرائم التي ارتكبت في القرنين التاسع عشر والعشرين، وما تزال ترتكب تحت أشكال الاستعمار والاحتلال. ولعل أبشع أشكال أعمال العنصرية التي ارتكبت حينئذ تجد ما يمكن وصفها بالمفردات اللغوية الثرية بهذا الخصوص "مذابح"، "مجازر"، "تطهير عرقي"، "عزل"، "تصفية جماعية"، "فيتو"، "سفك الدماء"، "ترحيل جماعي ... الخ.

يلازم التمييز العنصري في أيامنا هذه الغرب بمعانيه العميقة فهو مرتبط بالحضارة الغربية فالعقليات العنصرية تطورت ابتداءً من القرن التاسع عشر بتطور عوامل أساسية لتلك القدرة المادية الهائلة والقوة العسكرية الجبارة والاحتكار الاقتصادي واللغة المهميتين. كل هذه العوامل خلقت عقدة التفوق والتي بمقتضاها ينظر بعض الغربيين بازدراء ونوفر للأمم غير الغربية. إلا أن هذه النظرة اقتضت عند عدد كبير من الغربيين الآخرين على السلبية الصامتة، فلم تأخذ أي منحى عملياً ولكن لا يوجد ما يضمن عدم صحوقها لديهم يوماً وارتدائها طابعاً عنيفاً.

إن مفاهيم الاصطلاحات الرئيسة التي تعبر عن أشكال العنصرية مثل "xenophobia", "métis", "Apartheid", "Ratonnade", "شمال + جنوب"، "جنس ملون"، "تطرف"، "معاداة السامية"، هي اصطلاحات خاصة بالحضارة الغربية، ولا نجد لها مكافئات دقيقة في اللغات الشرقية خصوصاً في العربية.

تركز هذه الدراسة على المفاهيم العنصرية للمفردات من خلال لغة غربية (الفرنسية)، ومن ثم نحاول إجراء دراسة مقارنة مع مفردات اللغة العربية والتي من الممكن أن تعبر عن هذه المفاهيم الغربية عن اللغة والحضارة العربية الإسلامية. ولعل من أهم سمات هذه الدراسة أنها تمثل مقارنة وتبايناً بين لغتين على صعيد المفردات المتعلقة بالعنصرية وأن أحد هذين النظامين اللغويين انبثق من الغرب مهد ومقل العنصرية أمّا النظام اللغوي الثاني فيمثل العالم القديم والذي يعد في أحوال كثيرة هدفاً لهذه العنصرية.

يعود اختيار اللغة الفرنسية لأمرين الأول أنها لغة التخصص والثاني أنها تمثل - إلى حد بعيد- اللغات الغربية في هذا المجال، ولعلها تتفوق على اللغات الغربية الأخرى بهذا الشأن وتهدف أيضاً هذه الدراسة المقارنة والمتباينة معاً لإثبات أن المفردات في لغة ما

تتطور عندما يكون ضرورياً لها أن تغطي حقلاً دالياً جديداً فهناك اصطلاحات جديدة أوجدها التطور في العقلية العنصرية في الغرب. وهناك عناصر لغوية موجودة أصلاً في اللغة الفرنسية كانت محايدة وخالية من المعاني العنصرية ثم تم - بالتدرج - تحميلها بإفراط بمفاهيم عنصرية حتى أنها تحولت من دلالاتها الأصلية لتحمل معنى عنصرياً خالصاً مغايراً لدلالاتها السابقة المعتادة.

تركز هذه الدراسة أيضاً على الأوجه الاجتماعية الثقافية وبالتالي اللغوية الخاصة باللغات الغربية من خلال الفرنسية، والتي طورت مفاهيم جديدة للعنصرية مما يعكس ملكة التوسع في العقلية المعادية للأجانب والتي - في بعض الأحيان - تجبر عناصر نحوية على أن تنحرف عن مرادها الحقيقي لتعبر لذلك عن الاحتقار والحقد وكأن الاصطلاحات العديدة الموجودة أصلاً في هذا المجال غير كافية للتعبير عن هذا التطور الهائل في العقلية العنصرية الغربية.

منهجية البحث:

يجري تصنيف اصطلاحات اللغتين موضوع هذه الدراسة حسب أوجه الالتقاء والابتعاد في مفاهيمها الدلالية. ففي الصنف الأول سنعرض للمفردات الفرنسية ذات التقارب الدلالي مع العربية على الرغم من أن لبعض المصطلحات الفرنسية بعداً اجتماعياً وثقافياً أعمق مما يقابلها من المصطلحات العربية، فبعض المصطلحات الفرنسية تلاقى مكافئات لفها في العربية إلا أنها لا تغطي المفهوم الواسع والعميق الموجود أصلاً في السياق الثقافي والاجتماعي للفرنسية. فسبب الابتعاد في المفاهيم الدلالية يرجع إلى التطور - على المدى الطويل - للمفاهيم والاصطلاحات الفرنسية التي ترجع إلى أحداث وظواهر اجتماعية وثقافية خاصة كمصطلح "Croisade" والذي يترجم للعربية

بسهولة بـ "الحروب الصليبية" لكن الترجمة لا تحمل نفس الدلالة في السياق المفهومي الفرنسي كما هو في وقع هذا المصطلح على العقلية العربية الإسلامية. يقول سيلوكوفتش (١- ص.ص ٢٤٣-٢٤٤) "كثيراً ما لاحظت أنه لا يوجد في أغلب الأحيان مكافئات مسبقة بين اللغات للتعبير عن معنى المصطلح المتداول في الحديث أو أنه لا يوجد مكافئات جاهزة في اللغة تلائم كمرادفات للمعنى وأن الحديث أو استخدام اللغة يكون خلقاً مستمراً في اللغة أكثر من تطبيق للمعاني اللغوية القائمة".

ويعرض التصنيف الثاني للمفردات ذات الدلالات العنصرية الواضحة والخاصة باللغات الغربية، وسيجري تحليلاً دلالياً لهذه المصطلحات كما هي متداولة في السياق الغربي من حيث وقعها على العقلية الغربية. "إذا كان بإمكاننا التفاهم فيما بيننا على الرغم من الاختلافات اللغوية وعلى الرغم من أن الاصطلاحات تدل على البيئة والعالم بطريقة مختلفة ذلك لأن فهم المعاني يسبق اللغة نفسها" (كوزيرو ١- ص ٢٣٦) وعلى الرغم من إمكانية الترجمة نظرياً لهذا النوع من المصطلحات فمن الضروري أن يرافق هذه الترجمة تفسيرات وشروحات لكي يتم التقاط المعنى العميق لها، لأنها تمثل عقلية خاصة في لغتها الأصلية القادمة منها. يؤكد سيلوكوفتش (١- ص ٢٠٦) على أنه كمطالب للشرح التفسيري للترجمة فإن الترجمة تعني بالنسبة له نقل المعنى للرسالة اللغوية في النص وليس تحويل صيغة النص من اللغة المصاغ فيها أي لغة أخرى.

تقدم المصطلحات الرئيسية في التصنيف الثالث والخاصة باللغة الفرنسية والتي تعبر عن العنصرية المعادية للعرب وسنلجأ إلى تحليل مجالها من حيث المعنى. فهناك تلك المصطلحات التي تحمل معنى مجسداً للعقلية الفرنسية في هذا المجال والذي ولد خلال الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا خصوصاً في الجزائر، حيث أن هذه المصطلحات تستجيب للحاجة التعبيرية للمواقف المتعالية والحاقدة والمعادية التي اعتاد أن يطلقها



المستعمرون ضد السكان الأصليين وما زال العنصريون يستخدمونها إلى يومنا هذا. فهذه المصطلحات تطابق في الواقع مفهوماً خاصاً في الفرنسية يدل على أناس معينين، ويعود إلى سياق ثقافي واجتماعي محدد. فمن المؤكد أنّ محاولة استيعاب هذه المصطلحات لدى العرب يخلق نوعاً من الاصطدام مع مشاعر حساسة تتطلب العودة إلى السياق الثقافي والاجتماعي الذي خلق هذه المسميات اللغوية المقيّنة. لهذا سنكون مجبرين إلى اللجوء للتفسير من أجل نقل ماتحملة هذه المفردات من معان آخذين بعين الاعتبار الصعوبة اللغوية والمعنوية في ترجمتها إلى اللغة العربية. حيث يميل النص المترجم بدرجة تفوق حجماً عن النص الأصلي بما أن الاتجاه العام في الترجمة يميل إلى درجة كبيرة من التوضيح فإن احتمالات اللجوء إلى التفسير كبيرة كما تصف (Shoshana - 7- ص 299) التحولات في درجة التوضيح وفي المعنى :

(shifts in levels of explicitness and shifts in text meaning) أمّا التصنيف الرابع فيتناول ظاهرة لغوية خاصة باللغات الغربية خصوصاً (الفرنسية) وهي تتعلق بتلك العناصر النحوية التي أجبرت على حمل معان في سياقات خاصة بالعنصرية لتساهم في توسيع مفاهيم الاحتقار والتعالي.

ويتناول التصنيف الأخير المفردات الخاصة بالسياق العربي والتي لها عبء ثقافي خاص بعدم تحمل الآخر. ويمكننا بهذا التصنيف من إظهار التباين بين العربية واللغات الغربية (الفرنسية) في مجال المصطلحات ذات المفهوم العنصري، حيث أن التمييز بين بني البشر في السياق الغربي يتأتى من الجانب العرقي ويتمحور حوله بينما في السياق العربي يتعلق بالعبقيدة الدينية وتبعاتها.

تكشف المفردات ذات المفهوم العنصري عن تباين قام ليس فقط على المستوى اللغوي وإنما على المستوى الحضاري فهناك حضارتين متعارضتان تبرزان عقليتين مختلفتين

